د. عبدالغفار مكاوي
والفلسفة القديمة

بقلم: أ. د./ مصطفى النشار(*)

تمهيد: مكانته الفكرية:

يعد د./ عبدالغفار مكاوي واحدًا من جيل أعطى نفسه للفكر والتأمل والإبداع، ففضل البعد عن الأضواء والانشغال فقط بكتبه ومؤلفاته و إبداعاته حتى يخرج لنا رحيقًا يمتزج فيه الفكر بالأدب، والفلسفة بالإبداع، هو نسيج وحده عاشق للحقيقة وساعيًا في الوصول إليها، وحيدًا و إن كان قرنائه هم الفلاسفة الذين أحبهم من كل عصور الفلسفة؛ فهو عاشق لفكر الشرق ولفكر اليونان بنفس قدر عشقه لفكر الفلاسفة الألمان وخاصة نيتشه وليبنتز وهيدجر ومعهم وقبلهم لكانط وياسبرز. إنهم مدرسة الحكمة التي تربى فيها فعشقها وزهد في كل ما عداها، بينهم يحس بالسعادة والصحبة الخيرة، ومعهم يشعر بأنه اقترب من الحقيقة و إن أدرك أنها بعيدة المنال، وبعيدا عنهم يشعر بالتعاسة واليأس. إنهم من يعطونه الأمل في الحياة والصبر على المكاره والآلام. إنه أصبح واحدا منهم رغم تواضعه الجم؛ فمنه شربنا الحكمة في مقاعد الدرس وعنه تعلمنا معايشة الفلاسفة والتعاطف مع مذاهبهم قبل الحكم عليهم والتجرؤ على نقدهم، و إليه وأصبحنا ننتسب في المدرسة التي افتتحها للحكمة فهو ابن السلطان الذي نزور جنته كلما نبحت الكلاب واشتد سعارها. و إليه نلجأ لينقذنا ويضعنا على طريق الفضيلة ونداء الحقيقة ويبعدنا عن جذور الاستبداد وعن الذي طغى إننا معه نعيش ثورة الشعر وفي عالم الحب والجمال ننهل من النبع القديم وندرك لم الفلسفة وننضم لزمرة الحكماء السبعة، ونعيش ميتافيزيقا الأخلاق. إنه القصيدة وهو الصورة التي أحببناها كما أحبتنا إنه د./ مكاوي أديب الفلاسفة وفيلسوف أدباء عصرنا الحاضر بحق، فهو الذي دعانا للفلسفة مع

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

أرسطو، و إلى المسرح التعبيري وعصور الأدب الألماني في آن واحد، إنه ابن البلد البعيد وهو أقرب إلى القلوب والعقول من حبل الوريد.

أولًا: لمحة عن حياته ومؤلفاته[1]:

(أ) حياته:

- ولد د./ عبدالغفار مكاوي في الحادي عشر من يناير ١٩٣٠م في مدينة بلقاس بمحافظة الدقهلية.
- تدرج في المراحل التعليمية حتى التحق بكلية الآداب – جامعة القاهرة وحصل منها على ليسانس الفلسفة عام ١٩٥١م.
- حصل على دكتوراه الفلسفة في الفلسفة والأدب الألماني من جامعة فرايبورج عام ١٩٦٢م وكان موضوعها المحال والتمرد عند البيركامي.
- عمل بقسم الفهارس الأجنبية بدار الكتب المصرية وقت أن كان رئيسها توفيق الحكيم قبل أن يلتحق بالعمل بالسلك الجامعي للتدريس بقسم اللغة الألمانية عام ١٩٦٥م بكلية الآداب – جامعة القاهرة.
- انتقل إلى قسم الفلسفة ليعمل مدرسًا للفلسفة بنفس الكلية عام ١٩٧٢م.
- رقي إلى درجة أستاذ مساعد بقسم الفلسفة عام ١٩٧٣م، ثم إلى درجة أستاذ بنفس القسم والكلية.
- أعير للعمل بجامعة صنعاء باليمن في الفترة من ١٩٧٨م حتى عام ١٩٨٢م وعاد ليستقر بالقاهرة ثلاث سنوات ثم استقال وسافر إلى الكويت ليعمل بجامعة الكويت لمدة عشر سنوات من عام ١٩٨٥م حتى عام ١٩٩٥م.
- شارك في الحياة الثقافية في مصر وعرف بغزارة إنتاجه وأصالته سواء في مجال الأدب أو

(١) انظر موسوعة ويكيبيديا العربية الإلكترونية Wikipedia.
وكذلك: جرجس شكري: عبدالغفار مكاوي – الثقافة عطش حقيقي للحرية والعدل، مجلة نزوي سلطنة عمان، العدد السادس والثلاثون، ٢٠٠٩/٧/٢٧م.

في مجال الفلسفة وكانت أهم المجلات الفكرية التي عمل بها واستقبلت مقالاته مجلات عديدة كالثقافة والأدب والأديب والآداب التي عمل، شارك في مجلس تحرير مجلة «المجلة» مع أ./ يحيى حقي، ومجلة الفكر المعاصر مع د./ فؤاد زكريا. وكثر إنتاجه في مجال الترجمة من العربية وإليها؛ حيث ترجم مقالات عن توفيق الحكيم وبعض المقالات من الأدب الغربي، كما نقل إلى العربية أشعار إليوت ونقل عيون الأدب الألماني وخاصة من أعمال جوته وبرشت ويوشنر.

(ب) مؤلفاته:

أما إبداعاته في مجال الأدب فهي كثيرة ولعل من أهمها في مجال القصة:

- مجموعة قصصية بعنوان «ابن السلطان» نشرت في سلسلة «أقرأ».
- الست الطاهرة، مجموعة قصصية.
- الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت عام ١٩٨١م.
- القبلة الأخيرة.

وفي مجال الإبداع المسرحي كتب:

- من قتل الطفل عام ١٩٨٤م.
- زائر من الجنة عام ١٩٨٥م.
- دموع أوديب عام ١٩٨٧م.
- القيصر الأصغر ومسرحيات أخرى شرقية عام ١٩٨١م.
- هو الذي طفى عام ١٩٩٢م.
- بشر الحافي يخرج من الجحيم.
- محاكمة جلجاش.
- الكلاب تنبح القمر.

أما في مجال الدراسات الأدبية فقد كتب عدة مؤلفات منها:

- سافو: شاعرة الحب والجمال عند اليونان، عام ١٩٦٦م.

- البلد البعيد، ١٩٦٧م.
- ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر ١٩٧٠م.
- المسرح التعبيري ١٩٨٤م.

دراسات في الأدب والفلسفة:

- شعر وفكر، عام ١٩٩٥م.
- عصور الأدب الألماني، ٢٠٠٢م.
- النبع القديم، ٢٠٠٦م.

أما في مجال الفلسفة فكتب مؤلفات عديدة منها:

- المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي مع دراسة لفلسفة ليبنتز ١٩٧٤م.
- المنقذ - قراءة لقلب أفلاطون، ١٩٨٧م.
- لمر الفلسفة، طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨١م.
- الحكماء السبعة، ١٩٩٠م.
- الطريق والفضيلة للمفكر الصيني القديم لأوتسي، مؤسسة سجل العرب ١٩٩٦م.
- النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت عام ١٩٩٤م.
- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق للفيلسوف الألماني كانط، ١٩٦٥م.
- مارتن هيدجر، نظرية أفلاطون عن الحقيقة – ماهية الحقيقة – نداء الحقيقة وقد نشر عدة نشرات أعوام ١٩٩٧-١٩٩٨م – ٢٠٠٢م.
- ثيوفراسط، كتاب الطباع، هيئة قصور الثقافة ١٩٩٨م.
- تاريخ الفلسفة، بنظرة عالمية لكارل ياسبرز، دار الثقافة ١٩٩٦م.
- البير كامي، محاولة لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف ١٩٦٤م.
- قصيدة وصورة، ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، العدد ١١٩.

- دعوة للفلسفة لأرسطو، نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
- تجارب فلسفية، دار شرقيات بالقاهرة، ٢٠٠٨م.

وقد توجت هذه الرحلة الخصبة من الإبداع في التأليف والترجمة، بحصول د./ عبدالغفار مكاوي على جائزة الدولة التقديرية في مجال الأدب من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام ٢٠٠٣م.

والناظر في تلك القائمة المختصرة من إبداعاته ومؤلفاته يدرك كم هو متنوع الاهتمامات وغزير الإنتاج في مختلف مجالات الأدب وكذلك في معظم عصور الفلسفة واتجاهاتها ولذلك سنقتصر هنا على الوقوف عند جانب واحد من اهتماماته الفلسفية، وهو الاهتمام بالفلسفة القديمة بوجهيها الشرقي والغربي، إذ لم يمنعه عشقه لفلاسفة اليونان من أن يهتم بقراءة جوانب عديدة من الفكر الشرقي القديم وخاصة في الحضارتين الكبيرتين حضارة وادي الرافدين والحضارة الصينية القديمة ولنبدأ من معرفة رؤيته لمعنى الفلسفة وعصورها.

ثانيًا: مفهومه للفلسفة ودور الفيلسوف:

إن الفلسفة عند د. مكاوي هي التفلسف؛ وها هو يبدأ كتابه «مدرسة الحكمة» بقوله ليس هناك فلسفة بغير تفلسف، أعني بغير مشاركة في مسائلها وتجربة حية لمشكلاتها.. إنها مجموعة من المشكلات والأسئلة التي لا تكاد تختلف من عصر إلى عصر إلا في أسلوبها وطريقة صياغتها والإجابات التي يحاول أبناء كل جيل أن يقدموها لها ويعكسوا على مرآتها أفكارهم وهمومهم وضعفهم وقوتهم وأحلامهم وأشواقهم وتخريفهم وسخفهم أيضًا.. إنها رسالة دائمة لا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن حمل أمانتها ومسئوليتها إلا إذا أراد التخلي عن حقيقته كإنسان[1].

إن الفلسفة في نظر د./ مكاوي هي ما يفتح عيوننا على معنى وجود العالم ووجودنا وتضع أيدينا على ما فيهما من إشكال في ذاته إلى الحد الذي نكف معه إلى الأبد عن التماس الحلول النهائية أو وضعها في صيغة مريحة أو قالب ثابت من تلك الصيغ التي يزخر بها تاريخ الفلسفة[2]. ولذلك فالفيلسوف يعيش على الدوام في حالة من الارتباك، والارتباك هو نقطة

(١) د. عبدالغفار مكاوي: مدرسة الحكمة، دار الثقافة للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص١١، ١٢.
(٢) نفسه، ص١٢.

ضعف الفيلسوف وهو كذلك فضيلته فهو يعلم أن بحثه الدائم عن الوجود الشامل أو المعنى أو الحقيقة ...إلخ لا يجيز له أن يبعده عن تيار التاريخ ولا عن عالم الظواهر من حوله، كما يعلم أن انشغاله الضروري بعالم الطبيعة والبشر لا يصح أن يشغله عن الكل والمطلق والمعنى، إنه لا يتعالى فوق تناقضات العالم والعصر ولكنه كذلك لا يريد أن يغرق نفسه فيها[١].

ولقد عاش د./ مكاوي هذا المفهوم الذي يراه للفلسفة والفيلسوف حيث عاش طوال حياته حالة القلق والارتباك هذه، وظل يعيش هذه الحركة المعذبة المتصلة بين السؤال والجواب، وقبل هذا القدر القاسي النبيل في شجاعة وثقة وتحمل مسئوليته في أمانة وكبرياء.

ثالثًا: موقفه من الفلسفة الشرقية:

ولعل من القضايا التي حيرته وأرقته فيما يخص موقفه من الفلسفة القديمة هي قضية هل ثمة فلسفة في الشرق القديم؟!

وقد عبر هو عن هذه الحيرة حينما تساءل في مطلع كتابه عن الحكمة البابلية الذي عنوانه «جذور الاستبداد - قراءة في أدب قديم» هل حكمة بابل فلسفة أم حكمة: وقد قصد بهذا التساؤل التشكيك في الرأي الشائع بين معظم مؤرخي الفلسفة الغربيين وأتباعهم من الشرقيين الذين يقولون بأن «الفلسفة بمعناها العقلي والمنهجي الذي اتخذته منذ نشأتها مع العلم، ومحاولاتها للانفصال عن الدين والأسطورة في مجتمع دولة المدينة اليونانية الحرة شيء غربي محض، وأن حكمة الشرق الدينية والأخلاقية المتجهة في جملتها إلى الخلاص والتطهر والتوافق مع الطبيعة الخارجية أو الداخلية لا السيطرة عليها والتحكم فيها، كانت في أفضل الأحوال مجرد تمهيد لها أو طرقات على بابها أو بشائر من نور فجرها[٢].

وقد خرج د. مكاوي من هذه الحيرة برأي سديد وقاطع حينما أكد على أنه انتهى كما انتهى قبله صفوة من الباحثين الغربيين والشرقيين إلى استحالة إنكار فلسفة شرقية بالمعنى العام الذي يفهم من مجموعة الرؤى الكلية والمواقف التأملية في مغزى الحياة والموت والخلق

(١) نفسه، ص١٤.

وراجع في كل ذلك د. عبدالغفار مكاوي، لم الفلسفة، منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٢) د./ عبدالغفار مكاوي، جذور الاستبداد – قراءة في أدب قديم، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (١٩٢)، ديسمبر ١٩٩٤م، ص١٤.

والمصير والخير والشر والعدل والظلم والاختيار والجبر ...إلخ مهما جاءت هذه التأملات في الإطار الديني والأخلاقي الموروث وفي لغة المجاز الشعرية والأسطورية[١].

إنه يرى إطلاق لفظة فلسفته إذن على ما اعتبروه حكمة شرقية سابقة على الفلسفة اليونانية، وهو يطلق على حكمة الشرق فلسفة إذا ما وسعنا من إطار الفلسفة وخرجنا به عن معناها الضيق الذي ألزم به أرسطو أول من أرخ للفلسفة الغربية اليونانية معظم المؤرخين الغربيين المتعصبين للروح الفلسفية الغربية القائمة على التأمل النظري الذي يتفرغ لدراسة الوجود والتعبير عن ذلك بلغة عقلية مجردة تستخدم الحجاج العقلي ولا تقبل غيره.

إن د./ مكاوي يرى بوضوح أنه «لو أطلقت كلمة الفلسفة بمعناها الأعم على أية حكمة أو رؤية متسقة وشاملة يكونها الإنسان عن نفسه وعن العالم والمجتمع، وقضايا الأصل والمصير والوجود والقيم وسائر القضايا التي يتساءل عنها بما هو إنسان يحيا في العالم ومع الناس ويقلقه الموت وما بعد الموت أو على الصورة التي حصلها في وعيه ثم عبر عنها بمختلف وسائل التعبير عن تجربته بالواقع في مجموعه، لو فعلنا ذلك لكان من حقنا القول إن الفلسفة كانت حاضرة في وعي الإنسان منذ أن فرغ من مطالب الحياة المادية ومستلزمات الصراع الطبيعي وبدأ يعقل وجوده ويحدد علاقته بالعالم والآخرين حتى لو تم تعرف مستوى هذا التعقل عن طريق تحليل القول الأسطوري أو الشعري واستخلاص بنية علاقاته الكامنة في صوره واستعاراته ورموزه وصيغه المجازية المختلفة»[٢].

إن د. مكاوي يعتبر أن هذه الرؤى الفلسفية الشرقية رؤى جديرة باستحضارها وفهمها والتعايش معها، ويرى أنه من الخطأ «أن نأخذ على الحضارات الشرقية القديمة أنها لم تصب تجربتها بالوجود في قالب اللوجوس اليوناني الغربي وأن نبذل الجهد في تلمس البذور الفلسفية التي أينعت فيما بعد لدى اليونان بحيث يصبح التفكير الأسطوري والشعري والعلمي «العملي» مجرد تمهيد أثر تأثيرًا لن يستطيع أحد اليوم أن ينكره لهذا اللوجوس وكأنما كان أشبه بتباشير الضوء المرتجفة المتعثرة التي سبقت إشراقة شمس العقل الإغريقي المنتصر»[٣].

---

(١) نفسه.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٣٢-٣٣.

(٣) نفسه، ص٣٣.

ومع أننا نوافق د. مكاوي على هذا التحذير من الوقوع في خطأ هذا الخطاب إلا أننا نرى أن التناول الأمثل للفلسفة الشرقية هو اعتبارها أولى مراحل الفلسفة والحقبة التاريخية الأولى في تاريخها الممتد من الألف الثانية قبل الميلاد ومنذ «مخطوط الحكمة» لبتاح حيث أول مفكر مصري قديم وحتى الآن فلقد أكدنا في كتابات سابقة أن لفظة Sophia أي حكمة هي لفظة تعود في أصلها إلى مصر القديمة[1] وأن التأملات الفلسفية لفلاسفة الشرق سواء كانوا في مصر أو في الهند أو في فارس أو في بابل أو في الصين القديمة ذات طابع وخصائص قد تختلف أو قد تتلاقى مع خصائص الفلسفة في اليونان لكنها تمثل في ذاتها مرحلة من مراحل تاريخ الفكر الفلسفي سابقة على تلك التي وجدت عند اليونان، وأن التمايز بينهما موجود والتأثير المتبادل موجود مع مراعاة الأسبقية التاريخية لفلسفات الشرق القديم.

رابعًا: موقفه من الفلسفة اليونانية:

ولا شك أن د. مكاوي مع هذا التمايز بين مرحلتي الفكر القديم؛ الفلسفة الشرقية والفلسفة اليونانية، لكن إنتاجه بالطبع يغلب عليه الاهتمام بالفكر اليوناني تأليفا وترجمة، فقد نقل لأفلاطون الرسالة السابعة، كما نقل لأرسطو كتابه المهم الذي كان مفقودا وأعاده المؤرخون إلى الحياة، كتاب «بروتر يبتيقوس» أو كما أسماه في ترجمته له «دعوة للفلسفة» وقد كان ينقل هذه النصوص بدافع الحب الشديد لهذين الفيلسوفين العظيمين أفلاطون وأرسطو، أنظر إليه يقول في مقدمة ترجمته لكتاب الأخير «لقد قرأت النص فأذهلتني الكنوز التي ينطوي عليها، وأعدت قراءاته مرات قبل أن يتحرك في نفسي الدافع الملح لنقله إلى العربية.. ولكن حبي للعمل وإعجابي بعظمة صاحبه لم يتركا لي فرصة للتردد[2]. وغني عن العقول أنه في هذه

(١) انظر/ مؤلفاتنا:
- نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة، وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة ١٩٩٢.
- نحو تأريخ عربي للفلسفة، ط٢، دار قباء بالقاهرة، ٢٠٠١.
- الفكر الفلسفي في مصر القديمة، الدار المصرية السعودية بالقاهرة، ٢٠٠٤م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، عدة طبعات بدار قباء بالقاهرة.
- المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء بالقاهرة ١٩٩٧م، ٢٠٠٧م.
- الفلسفة الشرقية القديمة، دار المسيرة بعمان – الأردن، ٢٠١٢م.

(٢) مقدمة د. مكاوي لترجمته العربية لكتاب أرسطو: دعوة للفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م، ص٢٨.

الترجمات يعرب النص في صورة تكاد تحس معها أنه مكتوب باللغة العربية، وعلى الرغم من أنه ينقله عن لغته الأصلية اللغة اليونانية مقارنًا بترجماته الأخرى خاصة الألمانية والإنجليزية، إلا أن براعة د. مكاوي في هذه اللغات جعلته يطوعها جميعا للغته الأم، اللغة العربية.

ويمكننا القول إن إسهام د. مكاوي في الفلسفة اليونانية ترجمة وتأليفا لايقل عن إنتاج أهم المتخصصين فيها وإن زاد على الكثير منهم في دقته ومعايشته لنصوص هؤلاء الفلاسفة وتلقيه الحكمة عنهم، والناظر في كتابه «مدرسة الحكمة» يدرك كم هو شغوف بفلاسفة اليونان وكم هو حبه لهم ولرؤاهم الفلسفية وعن مكانتهم لديه يقول د. مكاوي «أن هيراقليطس هو الأقرب إلى قلبي وأكاد أقول أنه هو نيتشه القرن التاسع عشر وأسميه الفيلسوف الباكي، ثم أفلاطون صاحب الشخصيات المتعددة فهناك أفلاطون في محاورات سقراط وهي مرحلة الشباب ثم أفلاطون الوسطى والكهولة والشيخوخة فهو نفسه تطور جدلي إذا صح كلام هيدجر عنه إذ تمت على يديه النقلة الصعبة من التفكير في حقيقة الوجود إلى الفعل الإنساني الذي أصبح المحك في التمييز بين الصواب والخطأ على أساس قياس كل شيء ناقص في عالمنا على الأصل وهو المثل، وقد عشقت أفلاطون لأنه يمثل الصراع بين الفلسفة والفن، فالفلسفة عنده طريق وليست هدفًا نهائيًا»[1].

ولا يكتفي د. مكاوي في اهتمامه وعشقه بفلاسفة اليونان بالفلاسفة الخلص بل يضيف إليهم الحكماء السبعة، أولئك الحكماء الذين اهتم بهم وكتب عنهم كتابا يحمل نفس الاسم، وهو يتساءل في تقديمه لهذا الكتاب لماذا اهتم بالحكماء السبعة وخاصة أننا في زمن غابت فيه، الحكمة وصارت ضعفًا واستسلامًا أو يأسًا وركودًا وظلامًا، وتحولت عند عدد كبير ممن جعلوهم مهنتهم، كتب ميتة ومذكرات ركيكة وإملاء وتلقين واجترار تجني كلها على النشء جناية لا تغتفر؟! ويجيب قائلا: «إذا كانت الحكمة والحكماء قد غابوا عن المسرح العالمي والمحلي فإن ورثة الحكماء وهم المثقفون وسليلة الحكمة وهي الثقافة يستحقان أن نقف معهما قليلا ونذكرهما بالماضي العريق والأجداد المنسيين لعلنا نستطيع أن نستوحي الحكمة والحكماء ونقيم لأنفسنا محكمة نقف فيها أمام أنفسنا ونراجعها ونحاسبها فمراجعة النفس ومحاسبتها بالمعنى الكوني الشامل كانت على الدوام جزءًا لا يتجزأ من الحكمة»[2].

(١) جرجس شكري، نفس المرجع السابق، نفس العدد.

(٢) د. عبدالغفار مكاوي، الحكماء السبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠م، ص٨.

إنه يقدم لنا في هذا الكتاب نصا يجمع بين التأريخ لهم والحوار معهم في شكل مسرحي جذاب يأخذ الألباب ويجمع بين الشعر والنثر ويزاوج بين الفلسفة والمسرح، بين حكماء الماضي وحكيم اليوم. فيحاسب نفسه من خلالهم ويحكم على جيله من خلال حكمتهم وضآلتنا بالنسبة لهم، إذ يقول تعقيبا على أحدهم: «حق ما قلنا ويبقى القول هو القول.. أعداء الحكمة لن ينفع معهم قول أو فعل فيرد عليه الحكماء «جرب» فيضيف في نبرة يائسة «جربت وألقيت البذر لم أحصد غير الحسرة والثمر المر» فإذا بالحكماء يقولون له «قد يقع المطر على أرض صالحة خصبة، ويمر الصدق على الكاذب فيحرك قلبه» لكنه يؤكد لهم «أن أعداء الحكمة في هذا العصر هم كالصخر شبوا في حضن الغدر، ماذا تنتظر من الأوغاد الكذبة، القوالين الوراقين الكتبة وشهود الزور ونهازي الفرص، لصوص الموتى والأحياء النهبة، هل ينبت زرع في أرض خربة؟ اغتالوا الحق وراحوا يبكون الميت وأقاموا المآتم وانطلقوا بأعلى صوت: الكاذب ينعي الصدق وينشد أروع مرثية والمتسلط يبكي الحرية، والمتسلق يندب حظ الشرف الضائع وعبيد السلطة يفتون عن الثورة، والساجد للدولار يحض الناس على الزهد ويسهب في مدح الفقر وإخلاص النية، والكل يصيح ويصرخ ويثير من اللاشيء قضية.. ويرد الحكماء: الكل ألا تستثني أحدًا؟ فيقول: استثني القلة وأقل من القلة.. من بالطبع أو العزة والأنفة عاشوا في كنف الغربة.. فيقول الحكماء: أتعيش الحكمة في تلك الغربة؛ فيرد عليهم وتعزي النفس بذكرى الحكماء السبعة»[1].

ولا يتوقف اهتمام د. مكاوي بفلاسفة اليونان وحكمائها فقط، بل يتعداه إلى الاهتمام بإنتاجهم الأدبي وخاصة في مجال الشعر، وقد اختار تلك الشاعرة المبدعة التي لم يكتب عنها في العربية شيء، سافر ليكتب عنها كتابا ضمنه دراسة مستفيضة حول نشأتها وسيرة حياتها، ودقق الشواهد المختلفة حول تاريخ مولدها ورجح أنها ربما ولدت على حدود القرنين السابع والسادس قبل الميلاد كما استعرض في هذا الكتاب نمط الحياة السائد في عصرها الذي آثر البعض أن يسميه العصر الغنائي وتناول د. مكاوي أيضا في هذا الكتاب علاقتها بأفراد أسرتها وخاصة بابنتها الوحيدة وبأشقائها الثلاثة وبخاصة شقيقها الأكبر خاراكوس[2].

(١) نفس المرجع السابق، ص١٢٠-١٢٢.

(٢) انظر: عبدالغفار مكاوي، سافو - شاعرة الحب والجمال، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٦م.

خامسا: رؤيته لأفلوطين:

ولعل من أهم الفلاسفة القدامى الذين أثروا في د. مكاوي وشكلوا فكره ورؤيته للحياة -رغم أنه لم يكتب عنه كثيرا- أفلوطين، فقد اكتفى بأن يكتب عنه فصلا في «مدرسة الحكمة» تحت عنوان وحيدا مع الواحد وتحت هذا العنوان كتب «كلمات صغيرة عن مفكر كبير» وفي هذا العنوان الثاني لخص د. مكاوي مكانة أفلوطين واصفا إياه بأنه مفكر كبير وأن ما سيكتبه عنه ليس إلا مجرد كلمات صغيرة. والحقيقة أنها لم تكن أبدا كلمات صغيرة لأنه في هذا الفصل قد قرأ جوانية أفلوطين ورد على كثير من التفسيرات الخاطئة حوله وإن لم يسلم هو من بعضها؛ حيث قرأه للأسف في ضوء الفلسفة والآداب اليونانية فقرنه بأفلاطون وفسره مستعينا بسافو شاعرة الحب والجمال عند اليونان. وأجدني هنا اختلف معه لأنني أعتقد أن القراءة الصحيحة لأفلوطين لا تكون إلا عبر التراث الأصيل الذي ينتمي إليه نشأة ومولدا وفكرا وتعليمًا، إنه التراث المصري القديم[1] الذي شكل الجانب الأكبر من فكر أفلوطين وأكسبه الأصالة والتميز الذي أشار إليه د. مكاوي نفسه واعترف به معظم المؤرخين الغربيين حينما اعتبروه ثالث الثلاثة الكبار في الفلسفة القديمة (أفلاطون – أرسطو – أفلوطين).

إن أفلوطين يعد في نظر د. مكاوي هو الجسر العظيم الذي انتقلت عليه الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة المسيحية والإسلامية في العصور الوسطى وكان اتجاهه إلى الباطن هو الخطوة الحاسمة الأولى على طريق التصوف الطويل[2]. ولعله في اعتقادي الشخصي لم يمثل هذا الجسر إلا بقدر ما كان معبرًا في فكره عن هذا الاتجاه الروحي الباطني العميق الذي ورثه من بيئته المصرية الشرقية في الإسكندرية التي تربى وتعلم فيها حتى وصل إلى سن الأربعين. وقد أدرك د. مكاوي تميز أفلوطين بحق حينما قال إن ما يميزه عن أفلاطون، بل ويتفوق عليه فيه هو أن «الصعود» عنده هو نفس الوقت «رجوع» فالصورة إلى الأصل هو ما أسميناه من قبل الاتجاه إلى الباطن، وهذا هو سر أصالة أفلوطين، وتفرده في تاريخ الفكر الغربي كله[3]، وان

(١) راجع بحثنا: أفلوطين فيلسوفاً مصريا أو الأصول المصرية لفلسفة أفلوطين، نشر عدة مرات وبخاصة في كتابنا: نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة، سبق الإشارة إليه، وكتابنا: الفكر الفلسفي في مصر القديمة، سبق الإشارة إليه.

(٢) د. عبدالغفار مكاوي. مدرسة الحكمة، ص٥٣.

(٣) نفسه، ص٥٤.

وافقت أستاذنا د. مكاوي في أصالة أفلوطين الفلسفية إلا أنني لا أوافقه على قوله «في تاريخ الفكر الغربي كله» لأن أفلوطين في اعتقادي لا ينتمي إلى الفكر الغربي اليوناني بقدر انتمائه إلى الفكر المصري القديم، فهو الشيخ الإسكندراني كما كان يلقبه المؤرخ العربي القديم، وهو الفيلسوف المصري الأصيل الذي يمثل قمة التطور الفلسفي في مدرسة الإسكندرية الفلسفية كما أرخت له في كتاب يحمل نفس العنوان «مدرسة الإسكندرية الفلسفية»[١].

ولعل من اللافت للنظر كذلك في فهم د. مكاوي لأفلوطين أنه نجح في الرد على أولئك الذين اتهموا أفلوطين بأنه عدو للجسد ويحتقر العالم المحسوس؛ حيث اعتبر أن تلميذه فرفريوس ربما يكون هو المسئول عن هذه الخرافات التي رواها عنه حينما قال في تأريخه له أن معلمه كان يخجل من جسده ويرفض أن يرسمه مصور ويضن بسر حياته فلا يبوح لأحد عن وطنه وآبائه[٢].

وقد رد بقوله: «إن أفلوطين كان يعرف قدر هذا العالم الحسي، ويتذوق مباهج الجمال والحسن فيه[٣]، ودلل على ذلك بالرسالة الثانية المتأخرة التي وقف فيها موقفًا حاسما من الغنوصيين محتقرى الجسد والعالم، تلك التي يقول فيها: «وكذلك فإن احتقار العالم والآلهة الذين فيه.. والأشياء الجميلة الأخرى ليس هو الطريق إلى الخير.. فكيف لا مرئ أن يكون على هذا الكسل في التفكير وألا يؤثر فيه شيء.. حين يرى كل هذا الجمال في العالم المحسوس.. وكل هذا التجانس والتوافق المذهل.. والمنظر المتألق الذي تتيحه الكواكب على الرغم من بعدها.. ألا يحس بشيء يختلج في فؤاده»[٤]..

حقًا إن أفلوطين لم يكن يحتقر العالم الحسي ولا الجمال الكائن في أشيائه، وما ذلك إلا لأنه كان يعتبره ببساط فيض من المطلق؛ إذ لم يكن أفلوطين يميز بين العالم المعقول والعالم المحسوس تمييزا صارما كما كان الشأن عند أفلاطون، وإنما كان يعتبر العالم المحسوس الامتداد الطبيعي للعالم المعقول وهو نتيجة «تأمل» الطبيعة لمبادئ وأقانيم العالم المعقول ومن

(١) انظر كتابنا: مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية، دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٥م.

(٢) د. مكاوي، نفس المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص٥٥.

ثم فلا يمكن أن يحتقره لأنه في نظره يعد أكمل عالم ممكن صدر عن الكامل كمالا مطلقًا غير محدود، كمال المطلق! فمن لا يدرك الجمال في المحسوسات لا يستطيع بلوغ رؤية الإله أو المطلق، فهو أصل الجمال الحسي وإليه يرتد!

إن أفلوطين - كما يقول د. مكاوي بحق - قد استطاع ربما لأول مرة في تاريخ الفكر البشري أن يخرج من هذا العالم، وتجربته التي توصف بالوجد أو الإنجذاب هي بمعناها الحرفي الخروج من ek-stais ولكنه لم يخرج من هذا العالم إلا لأن الواحد كان يجذبه بكليته إليه، لم يخرج منه إلا ليعود إليه وبهذا وحده استطاع أن يحب العالم ويقترب من سره ويرى مواطن الجمال فيه بعين جديدة لا تغيب عنها الدهشة[1].

لقد وجد د. مكاوي الحق مع أفلوطين وأصبح واحدا من مريديه حينما قال في نهاية حديثة عنه لقد ارتفع أفلوطين فوق ذاته وفوق العالم، واعتقد أنه سيجد في الواحد عزاءه الأخير، ولكنه ظل مع ذلك وحيدا حتى مع الواحد. هنالك لم يبق أمامه إلا الصمت والسكون. ومع ذلك فسوف يجد الإنسان دائما ما يعزيه عن وحدته أو ما يبعده عنها في العمل أو الحب أو الطموح أو الكفاح اليومي من أجل لقمة العيش، أما من لا يجد العزاء في شيء فماذا تكون حاله؟ وكم يا ترى تكون قسوة وحدته»[2].

لقد كان أفلوطين بلا شك يجد العزاء في إدراك الحقيقة القصوى للوحدة والاتحاد معها ولا شك أيضا أن مريده د. مكاوي وجد نفس العزاء وإن بقى في عالمنا دون أن يتجاوزه فالمتصوفة الخلص ليتحد مع الواحد! لقد وجد العزاء في التعبير عن هموم المواطن وآلام الوطن وفي التعايش مع كل مظاهر الوجود الفارغة وإن نجح في تجاوزها بصحبة الفلاسفة الذين عشقهم وأدرك معهم جوانب من الحقيقة المطلقة للوجود. وهيهات لبشر أن يدرك بالطبع كل الحقيقة.

(١) نفسه، ص٦٣.

(٢) نفسه.